ضرورةُ مكافحةِ الفقرِ والجهلِ والإرهابِ

عبد القادر علي إبراهيم(*)

إنَّهُ لمن دواعي سُروري أن أُعبِّرَ عن بالغ تقديري، وجزيل شُكري لفضيلةِ شيخِ الأزهرِ الشريفِ رئيسِ مجلس حكماء المسلمين، الدكتور/ أحمد الطيب، على دعوته الكريمةِ لي؛ للمشاركةِ في هذا المؤتمرِ الدوليِّ الميمون الذي يضمُّ كوكبةً نيِّرةً من رموزِ الأديان، وعقلاءِ العالم، وقادةِ الفكرِ، وذلك مناصرةً للسلام؛ أسمى هدفٍ للإنسانية، ومكافحةً للفقر والجهل والتخلف، ومحاربةً للتطرُّف والإرهاب، ووقفًا للدماءِ المُهَراقةِ والدمارِ المُستشري في خِضَمِّ صراعاتٍ شريرةٍ وحروبٍ عبثيةٍ تندلعُ في مناطقَ مختلفةٍ من العالمِ.

كما أنني أشكرُ الإمام الأكبر؛ لدوره في تصحيحِ المفاهيمِ، وتوضيحِ المصطلحاتِ المعاصرةِ في عصر الحَداثةِ، وبيان معانيها وتوثيقها بما يُناسب من مصادرِ الإسلامِ الحنيفِ، وخيرُ دليلٍ على ذلك «إعلانُ الأزهر للمواطنةِ» التي وثَّقها بصحيفةِ المدينةِ.

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى التجديدِ الدينيِّ، وأرى أن الإمامَ الأكبرَ شيخَ الأزهرِ الشريفِ هو حاملُ لواء التجديد الذي أشار إليه النبيُّ في الحديث الشريف: «إنَّ اللهَ يَبعَثُ لهذه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجدِّدُ لها دِينَها»(*)، وأفضلُ من يحملُ هذه الأمانة هو الإمامُ الأكبرُ بصفته شيخًا وإمامًا لجموع المسلمين.

ومما يُسعِدُني أيضًا أن أرىٰ تعانُقَ الحضاراتِ، وانسجامَ جهودِ الأرواحِ المؤمنةِ، المتمثِّلة في إمام المسلمين، وأعلىٰ رمزٍ محمَّديٍّ، ألا وهو فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ شيخ الأزهر الشريف مع قداسة البابا فرانسيس بابا الفاتيكان، الذي يُعتبر أعلىٰ رمزٍ في الديانةِ المسيحيةِ، متكاتفَينِ لنشرِ السَّلام إلىٰ البشريةِ جمعاءَ، ونبذِ العنف والتطرُّف تحت قُبَّةِ الأزهرِ الشريفِ.

كما أنَّني باسمي وباسمِ الشعبِ الصوماليِّ أُعزِّي مِصرَنا الحبيب حكومةً وشعبًا علىٰ الحادثتين المؤلمتين في الكنيستين بالإسكندريةِ وطنطا، ونحن نُعلِنُ تضامنَنا مع مصرَ الكنانةِ في حربها ضدَّ الإرهابِ.

أيُّها الحضورُ الكريمُ.

وقبل أن نتطرَّقَ الىٰ تفاصيلِ الموضوعِ أتبرَّك بالإحساسِ الأخلاقيِّ لأصحابِ الدينِ، وفي أعلىٰ القمَّةِ السيدُ المسيحُ عليه أفضلُ السَّلامِ، وسيدُنا محمَّدٍ صلىٰ اللهَّ عليه وآله وسلَّمَ؛ فقد كان المسيحُ عليه السَّلام يُشاطرُ الفقراء آلامَهم و أوجاعَهم، مع ما كان عنده من القوَّة الربَّانية التي بها يُحيي الموتىٰ، ويُبرئُ الأكمه والأبرص، ومع ذلك كان يعيشُ كأبسط شخصٍ في الحياة؛ ليُشارك مع أصحاب الفاقاتِ حياتهم، وقد حثَّ علىٰ إعانة الفقراء فقال: «مَن يرحمُ الفقيرَ يُقرِضُ الربَّ، وعن معروفه يُجازيه»، وقال أيضًا: «تصدَّق من مالك، ولا تُحوِّل وجهَك عن فقيرٍ، وحينئذٍ فوجهُ الربِّ لا يُحوَّلُ عنك».

كما كان الرحمةُ المهداةُ سيدُنا محمدٌ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم وخلفاؤه الراشدون أكثرَ الخلق عطفًا على الفقراء، وكانت أُسَرُهم من أبسطِ الأُسَرِ؛ فقد روت لنا عائشةُ رضي اللهَّ عنها عيشَ تلك الأسرة الطاهرة، وتعلمون حياة سيدنا عمر، وما فعل بنفسه في عامِ الرماد، وكانت حالتُهم هذه طواعيةً، مع كونهم قادةً للدولة الإسلامية، وذلك لاستشعار الظروفِ التي يعيشُها الفقراء، ولتلبيةِ حاجاتهم.

وقد حثَّ القرآنُ الكريمُ على الإنفاقِ والتصدُّقِ على الفقراءِ، فقال تعالى: **وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10)وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُّ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)**[المنافقون: ١٠، ١١]، وقال رسولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»(*).

ومع كلِّ هذه التعاليمِ الربانيةِ -والمؤمنون تَعِجُّ بهم المساجدُ والكنائسُ- نرى أن ظاهرةَ الفقرِ تنتشرُ، وتزدادُ البشريةُ سوءًا ومعاناةً، كما أن الرفاهية والغِنى وتحوُّل الأموال إلى الأرقامِ هي الأخرى التي تَزيدُ الفروقَ بين المجتمعات، وتخلقُ الطبقات بين أبناء الجنس الواحد ؛ مما يزرعُ الحقد والكراهية في صفوف المحرومين، ويجعلُهم فريسةً سهلةً للمجرمين والإرهابيين.

وتضمُّ دائرة الفقر بليون فردٍ في العالم، والتي يقلُّ فيها دخل الفرد عن ٦٠٠ دولار سنويًّا، ومنهم ٦٣٠ مليون في فقر شديد -حيث متوسطُ دخل الفرد

يقلُّ عن ٢٧٥ دولار سنويًّا- منهم مليار فردٍ غيرُ قادرين على القراءة أوالكتابة، ١,٥ مليار لا يحصُلون على مياهِ شربٍ نقيةٍ، وهناك طفلٌ من كلِّ ثلاثةٍ يُعاني من سوء التغذيةِ.

وللفقرِ أسبابٌ أكثرُها اليومَ عواملُ بشريةٌ: منها سوءُ توزيع الثروةِ، وسوءُ التنظيمِ، وكذلك الاتِّكالُ على الغيرِ، والتقاعسُ عن العملِ، وعدمُ التكافلِ الاجتماعيِّ بين أفراد المجتمعِ، والحروبُ.

وأودُّ ان أستغلَّ من هذه الفرصةِ التي أعطاني إياها الإمامُ الأكبرُ كأنه يُريد إرسالَ رسالةِ نجدةٍ من الصومال إلى العالمِ، وهذا ناتج عن اهتمامه البالغ للشعب الصومالي المنكوب؛ لأن هذا المحور ينطبقُ تمامًا على الصومال؛ لأن فيها الآن المجاعةَ والمرضَ، واستغلالَ الإرهابيين على هذه الظاهرة، وهناك تأثيرٌ على السِّلم العالميِّ من جانبِ الإرهابِ والقراصنةِ.

والمجاعةُ أخطرُ من الفقر؛ وهي فقدانُ الإنسان بما يَكفيه من السُّعراتِ الحراريةِ لنشاطه البدنيِّ، وقِوامِ بنيته الأساسية، وستترتبُ عليها نتائجُ كارثيةٌ على المستوى الإنساني؛ الحرمان من الماء والغذاء يفتكُ بخلايا العضلات، ويُبقي الأعضاء الأساسية بالكادِّ تعملُ، وفي هذه الأحوال يُصبح انتشارُ الإسهال والطفح الجلدي -بالإضافة إلى الالتهابات الفطرية وغيرها- أمرًا مفروغًا منه، وتُمسي الحركة مُهمَّةً صعبةً ومؤلمةً جدًّا، وينتهي الأمرُ بمعظم الأشخاص إلى الموت جرَّاء الجفاف، فيما يكون الشعور بالجوع أو العطش أمرًا ثانويًّا.

ومشاهدُ البؤس والفقر والحرمان التي نُشاهدها يوميًّا على وجوه أطفال الصومال تؤكِّد أننا نعيش في عالمٍ يفتقر إلى القيم الأخلاقية، عالمٍ يرى فيه الإنسانُ أخاه الإنسانَ يموت جوعًا ولا يمُدُّ له يد العون، عالمٍ تخاذلت فيه الأممُ منذ زمنٍ عن منطقة القرن الإفريقي، وتجاهلت المجاعةَ التي تفتكُ بالملايين من سكَّانه، وفَشِلَت في القضاء على هذه الكارثة الإنسانية.

وأيُّ عالمٍ هذا الذي نعيشُ فيه؟ إننا نعيشُ في القرن الحادي والعشرين، قرنِ التقدمِ العلميِّ والتكنولوجيِّ المُذهِلِ، ومع ذلك لم يتمكَّن جهازُ التحذير من المجاعة من رصدِ الجفاف الشديد الذي تُعاني منه منطقةُ القرن الإفريقي، لكن يبدو أن هذا الجفاف جاء من العدمِ، ولم تهتمَّ الحكوماتُ -ولا ترغبُ- في مد يد العون؛ لأنه ليست لها مصالحُ هناك.

ووَفقًا للمنظماتِ الدوليةِ؛ فإن الصومال على شَفا كارثةٍ إنسانيةٍ كبيرةٍ، حيث يهدِّد شبحُ المجاعةِ نحوَ ستة ملايين جرَّاء مَوجةِ الجفاف، ويحتاجُ الملايينُ إلى مساعداتٍ إنسانيةٍ عاجلةٍ؛ لتفادي تكرار الصور المُفزعة لأكثر من مئتين وخمسين ألفًا من الموتى جُوعًا قبل نحو ستِّ سنوات، كما يتعرض نحو ٥ , ٥ ملايين صومالي لخطر الإصابة بالأمراض المنقولةِ عبر المياه الملوَّثة.

ونظرًا لتدني المستوى المعيشي والوضع الاقتصادي الصعب؛ بفعلِ الحروب الأهلية والصراعات منذ أكثر من رُبع قرنٍ -يُعاني أكثرُ الأطفال دون سن الخامسة من سوء التغذية الحادِّ، وتتفشَّى الأمراض الناتجة عن سوء التغذية بينهم.

وقد أشارت منظمةُ الصحة العالمية أن الصومال قد ينزلقُ إلى أزمةٍ إنسانيةٍ، ويفقدُ المكاسبَ التي جَناها في السنواتِ القليلةِ الماضيةِ؛ حيث تموتُ كلَّ ساعتين امرأةٌ بسبب الحملِ ومضاعفاتِه، وواحدٌ من بين ثلاثةٍ صوماليين تتوفَّرُ له مياهٌ صالحةٌ للاستخدام.

وهناك وَفَيَاتٌ تُقدَّرُ بالآلاف؛ بسبب تفشِّي الأمراض، ولا سيما «الكوليرا»، وهناك خشيةٌ من تفشِّي «الكوليرا» في كثير من المناطق وَسَطَ نقص حادٍّ بالطعام والماء والدواء.

دَورُ المجتمعِ الدوليِّ في ظلِّ الأزمةِ:

وقد زار الأمينُ العامُّ للأمم المتحدة في الشهر الماضي الصوماليَ؛ لبحث تهديد المجاعة، وتضامنًا مع الصوماليين، وقال في مؤتمره الصحفي الذي عقده في مقديشو: «إن النزاع والجفاف إلى جانب التغيُّر المُناخي والأمراض والكوليرا كلُّها عواملُ تشكِّلُ كابوسًا». وأضاف أنه: «يتعين على الدول الغنية بذلُ المزيد من الجهد؛ للحيلولة دون سقوط الصومال في بَراثنِ المجاعة». وقال: «إذا كنت تريدُ مكافحة الإرهاب يتعيَّن معالجةُ الأسباب الأصيلة للإرهاب، ويتعيَّن إقرارُ السَّلام وتحقيقُ الاستقرار في بلدٍ مِثلِ الصومال، هذا هو أفضل سبيلٍ لأن تحميَ الدولُ الغنيةُ نفسَها»، وأردف قائلًا: «أنا لا أُخاطب كرم الأغنياء، بل أُخاطب الإدراك المُستنير للمصلحة الشخصية للأغنياء».

حَرَكةُ الشَّبابِ:

وملامحُ هذه الصورةِ الكئيبةِ السائدةِ تزدادُ قَتامةً بفعل جماعاتٍ وتنظيماتٍ تعتادُ على الاستفادة من حرمانِ فقراءِ العالمِ وحاجاتهم الماسَّةِ، فيُمارسون عليهم أبشع صور الاستغلال من قَبيلِ تجنيدهم في صفوف المتطرِّفين والإرهابيين، بحيث يتحوَّلون إلى قتلة وسفَّاحين، أو قنابلَ بشريةٍ موقوتةٍ قد تنفجرُ في أيِّ لحظة، أو من قبيل دَفعهم في شيكات تهريب المخدِّرات، أو في كتائب أُمراء الحرب الأهلية، أو اتخاذهم كقطع غيار بشرية لتجَّار الأعضاء البشرية.

ولهذا تلتقي أهدافُ تلك الجماعاتِ، ليس على استغلالِ ظروفِ ضحايا الفقرِ والمرضِ والحرمانِ فحسبُ، بل أيضًا على تكريس مناطق التخلُّف وأحزمةِ الفقر، باعتبارها مناطقَ ملائمةً لنشاطهم غيرِ الإنسانيِّ.

ولنتَّخذ من حركةِ الشبابِ الإرهابيةِ في الصومال نموذجًا، لكننا نؤكِّد أولًا أن منطلقات وأساليب وأهداف جماعات التطرُّف والإرهاب متشابهةٌ، بغضِّ النظر عن المرجعيات الوهمية التي يدَّعونها، فالأديان منهم بريئةٌ، والإنسانية منهم متبرِّئةٌ، فهم عدوٌّ للحياة، وحبيبٌ للفناء .

وحركةُ الشباب التي ابتُلِيَ بها الصومال نحوَ عَقدٍ من الزمن تُمارِسُ أشنع أشكال الاستغلال على سكَّان المناطق التي تسيطرُ عليها؛ إذ تستلب جزءًا كبيرًا من ممتلكاتهم ومواشيهم وسطَ إشاعة أجواءٍ من الترهيب والإرهاب، بحيث يتحولُ هؤلاء الأهالي المغلوبُ على أمرهم تدريجيًّا إلى عالةٍ على الحركة الشريرة التي يسهُلُ لها عندئذٍ تجنيدُ الأطفال والشباب، وحشوُ الأوهام والأباطيل في أدمغتِهم،

بحيث يندفعون إلىٰ جندلةِ غيرهم، وهلاكِ أنفسهم، كالعِطاشِ يوم الورودِ، فيخسرون دينهم ودنياهم.

وما يجري في الصومال ينسحبُ علىٰ بلدانٍ أخرىٰ من منطقتنا العربية والإفريقية وفي غيرهما، فالأمر إذًا ظاهرة ممتدة، غيرَ أنه من اللافت للنظر أنها تمُدُّ بظلالها القاتمةِ حتىٰ إلىٰ بلدانٍ لها حظٌّ غير يسير من التنمية، حيث إن الظاهرة مجسَّمة في المناطق العشوائية علىٰ أطراف المدن، وفي المناطق النائية التي طالها الإهمالُ لسبب أو لآخر، مع أننا قد نجدُ أن سوء توزيع الثَّرَوات حاضرٌ بقوةٍ بين تلك الأسباب، وذلك بالنسبة للبُلدان الأخيرة.

ومن حُسن الحظ أن حركة الشباب تشهدُ في الفترة الأخيرة انشقاقاتٍ كبيرةً في صفوفها وسَطَ انكشافِ زَيفِها لدىٰ كثيرين من المغرورين بهم، ولذلك بدأت تُكثِّفُ من الهجمات الانتحارية، كمحاولةٍ للتستر علىٰ الوهنِ والضعف الذي يَعتريها، ربما كرَفَساتٍ أخيرةٍ.

ومما يُثلج الصدر أن الخِناقَ أخذ يشتدُّ علىٰ الحركات الإرهابية في الصومالِ؛ وذلك كمؤشِّرٍ عامٍّ علىٰ بدء العدِّ التنازليِّ لنهايتها بإذن اللهَّ.

وهناك أيضًا ظاهرةُ القرصنة التي انطمست قبلَ خمس سنواتٍ، عادت أنشطتُها من جديد؛ بسبب المجاعة الأخيرة، وهذا ما يؤثِّر علىٰ السَّلام العالمي؛ نتيجةَ الفقر والحرمانِ.

ومن ثَمَّ فإن المناخ يوفِّر اتخاذ استراتيجيات مضادَّة من قِبَلِ العالم تتمثَّل في الآتي:

* ضمِّ سكَّان المناطق المهملة والعشوائية الى دائرةِ الاهتمامِ والرعايةِ من الحكومات والمؤسَّسات والهيئاتِ.

* توفيرِ التعليمِ والتدريبِ المهنيِّ فيها.

* خلقِ فرص عملٍ للشبابِ.

* سنِّ قوانين تجرِّم استغلال أطفالِ الفقراءِ.

* رعايةِ الدولة للأيتامِ، ومحاربةِ ظاهرةِ أطفالِ الشوارعِ.

* توسيعِ الجهود الإغاثيةِ، والوصولِ إلى المناطق النائيةِ، مع تسريع إرسال المساعدات؛ كي تصل إلى المتضرِّرين في الوقت المناسب، وقبل حدوث وَفَياتٍ جماعيةٍ.

* تضافرِ جهود البشريةِ من أجلِ محاربةِ الإرهابِ والتطرُّفِ، وسدِّ مَنافذه، وتجفيفِ منابعِ تمويله، إلى جانبِ محاربةِ الفقر ومسبِّباته، كما ينبغي اجتثاثُ الجرائم العابرة للقارَّات بأشكالها المختلفة.

* تبادلِ المعلوماتِ، وتنسيقِ الجهودِ والوسائلِ الكفيلةِ بالقضاءِ على المصائبِ التي يُعاني منها عالمُنا؛ حتى يَنعَمَ بالسَّلام والوئام المنشود في تَناغُمٍ إنسانيٍّ فريدٍ، مَلؤُهُ المحبة، ودَيدنُه السعادةُ لكلِّ أعضائه، ولِنَهُبَّ للعمل على ذلك.

الختامُ:

وفي الختام أقتطفُ من رَوضة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم طبقًا من وصايا النبوَّة، يُناشد بها الإنسانيةَ جمعاءَ؛ مناسبةً لنداء الأزهر الشريف، وإنعاشًا

لجهود مجلس حكماء المسلمين، بقيادة الإمامِ الأكبرِ؛ ألا وهي قولُه صلى الله عليه وسلم: «أيُّها النَّاسُ! أَفشُوا السَّلامَ، وأَطعِمُوا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدخُلوا الجنَّةَ بسَلامٍ»(*).

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهَّ وبركاتُه.